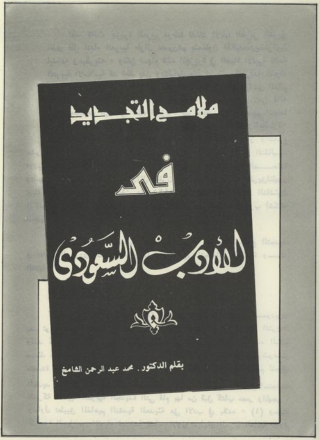

ملامح التجديد

في

الأدب السعودي

بقلم الدكتور. محمد عبد الرحمن الشامخ

لقد كانت جزيرة العرب موطنا لذلك الادب العربى العريق الذى ظل أدباء العربية طوال عصورهم يتمثلون تقاليده، ويستوحون أبداعه وعبقريته · ولكن اسهام هذه الجزيرة في الحياة الادبية للامة العربية الاسلامية قد أخذ يقل ويتضاءل منذ ان اتسعت رقعة الدولة العربية في اواخر القرن الثانى للهجرة ، حيث تعددت حواضر العالم الاسلامى ، ونشأت بيئات ادبية جديدة · ومهما يكن الامر فانه ليس بمستبعد أن تعود هذه الجزيرة الى سابق عهدها، فتسهم اسهاما ادبيا مبدعا، ولا سيما انها قد أخذت الان باسباب العلم والحضارة·

كان شأن الادباء في هذه البلاد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كشأن معاصريهم في البلاد لعربية الاخرى من حيث اتباع التقاليد الادبية التى استقرت في عصور الضعف الادبى · ولكن نشأة الصحافة وتأسيس المدارس الحديثة في أوائل القرن العشرين قد مهدا الطريق لظهور حياة أدبية جديدة · فلم يأت عام ١٩٢٥ الا وقد صار الادباء الناشئون في البلاد السعودية ينتجون أدبا يتخذ قوالب الادب الحديث ويجرب أشكاله الجديدة ·

وستكون الصفحات التالية عبارة عن دراسة موجزة لملامح التجديد في الادب السعودى الحديث ، واشارة الى أبرز اتجاهاته الفكرية وسماته الفنية ·

في النثر الادبى :

كانت المقالة أول الانواع النثرية التى شغف بها الكتاب السعوديون بعد توحد أجزاء المملكة السعودية في أواخر العقد الثالث من هذا القرن· ولقد كان جو الهدوء والاستقرار السياسى الذى تمتعت به هذه البلاد حينئذ من اهم الاسباب التى أنعشت المقالة الصحفية وجعلتها ذات موضوعات متعددة وأساليب متنوعة · فقد أخلى كتاب النثر التقليدى مكانهم للجيل الجديد من الادباء الذين بشر محمد حسن عواد بمقدمهم حين سجل استجابته للحركة الادبية العربية الجديدة التى قام بها من قبل كتاب مصر والمهجر ، وحاول تطبيق المفاهيم النقدية الحديثة على الادب في بلاده · (١) وحيث أن هذا الجيل من الادباء قد نشأ نشأته الاولى ـ ابان الحرب العالمية الاولى

– في جو حفل بالجدل والخصام الصحفى ، فقد تبين أنهم ورثوا شيئا من هذه الروح عندما قاموا بدعوتهم الى التجديد الادبى، والاصلاح الاجتماعى ·

وحيث ان كتاب المقالة الناشئين قد اعتقدوا بأن في مجتمعهم رسالة تشبه رسالة الرواد والمصلحين ، فقد انصرفوا الى ميدان الادب الذى اعتبروا العمل فيه من اهم عوامل البناء الاجتماعى (٢) ، ولذلك اصبح الانتاج الادبى الذى كان قليلا من قبل خصبا وفيرا خلال العقدين الثالث والرابع من هذا القرن ·

لقد اعتبر هؤلاء الكتاب حركتهم الادبية الجديدة معركة فكرية ، ولذلك وجدوا في المقالة النقدية سلاحا ماضيا افادهم في هجومهم على المفاهيم الادبية والاجتماعية التقليدية · وكان نقدهم شبيها بنقد معاصريهم من رواد الادب الحديث في مصر والمهجر من حيث أنه كان نقدا لاذعا وهجوما شخصيا ، ولكن الفرق بينهما هو ان الكتاب السعوديين نزلوا ميدان معركة كاد يخلو من الخصوم المحاربين ، ذلك لان الادباء التقليديين في هذه البلاد تذرعوا بالحلم والصبر ، ولم يصدوا هذا الهجوم ·

ورغم قصر المدة التى خاض فيها الكتاب الناشئون معركتهم النقدية ضد الادباء التقليديين ، الا ان المقالة النقدية ظلت مزدهرة في الادب السعودى ، ذلك لان الكتاب الناشئين أغرموا بتوجيه اللوم والنقد الى ما كان ينشره زملاؤهم من انتاج أدبى ، فشغلوا بالخصومات الادبية التى لم ينشأ معظمها لاختلاف في وجهة النظر الادبية ، بل بسبب الاغراض الشخصية والنزعات الذاتية (٣) ·

ولكن هذه الفوضى الادبية ما لبثت أن هدأت حين بدأ يحل محلها – منذ أواخر الثلاثينات من هذا القرن – اتجاه نقدى موضوعى على أيدى كتاب أصابوا حظا من النضج الفكرى والقدرة الادبية مثل حمزة شحاته(٤) وحسين سرحان (٥) · وقد اتسم هذا النوع من النقد بالرصانة والهدوء، واتصف بالاسلوب المنطقى والتفكير المحدد · فلم يكن اداة هجوم بل كان وسيلة لتقويم الاثار الادبية ، وتبيان خصائصها الفنية ، وعناصرها الجمالية ·

واذا كان الكتاب قد شغلوا فى فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية بالمقالة النقدية ، فليس معنى ذلك أنهم أهملوا حينئذ المقالات الادبية الاخرى ، فقد عالجوا المقالة الذاتية الابداعية والمقالة الاجتماعية ، وظهر في هذين المجالين كتاب بلغوا في الاجادة والاصالة قدرا يضعهم في صف أعلام المقالة فى البلاد العربية الاخرى · ومن هؤلاء الكتاب – على سبيل المثال – حسين سرحان وأحمد السباعى ومحمد حسن عواد وحمد الجاسر واحمد عبد الغفور عطار وعبد القدوس الانصارى وعزيز ضياء ·

أما الادب القصصى فقد تأخر ظهوره فى الادب السعودى ، حيث لم تأت المحاولة الاولى فى ميدان الفن القصصى الحديث الا عام ١٩٣٠ ،وذلك حينما أصدر عبد القدوس الانصارى روايته القصيرة « التوأمان » · وقد شهدت السنوات الخمس عشرة التالية ظهور رواية قصيرة اخرى هى قصة « الانتقام الطبيعى » لمحمد نور الجوهرى ، وصدور عدد كبير من القصص القصيرة · ولذلك فاق ما أسهم به الكتاب السعوديون فى مجال القصة القصيرة من حيث الكم ما انتجوه فى ميدان الرواية خلال الفترة التى انتهت بنهاية الحرب العالمية الثانية · وربما كان يعود ذلك الى ما لقيه فن القصة القصيرة من تشجيع ورعاية فى ظل الصحافة ولا سيما جريدة صوت الحجاز ومجلة المنهل ·

ولعل ابرز سمات القصة القصيرة التى انتجت قبيل الحرب العالمية الثانية هو أن عنصر المضمون قد لقى من اهتمام الكتاب أكثر مما لقيه الاسلوب القصصى والبناء الفنى · فقد كانت لهذه القصص عظات تحاول ايضاحها ، أو آراء تريد اثباتها والدفاع عنها · واذا كان هناك من خلاف فيما بينها فانما هو فى الطريقة الفنية التى عولج بها الموضوع القصصى، فقد جانب التوفيق بعض الكتاب الذين لم يحذقوا الاسلوب القصصى ، ولكن عددا آخر من الكتاب مثل محمد على مغربى ومحمد أمين يحى ومحمد عالم الافغانى وأحمد رضا حوحو قد أصابوا شيئا من النجح فى قصصهم التى نشروها حينئذ فى مجلة المنهل ·

وفى الحقيقة أن ما أسهم به كتاب القصة فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الثانية لا يقارن من حيث الكم والكيف بما انتجه زملاؤهم

المقاليون · فلم يزد ما أنتج فى ميدان الرواية حينئذ عن روايتين قصيرتين اتسمتا بالصبغة التهذيبية التعليمية ، أما القصص القصيرة فما كانت قليلة العدد ، ولكن معظمها كان شبيها بهاتين الروايتين من حيث كونها تهذيبية فى غرضها ، تجريبية فى طبيعتها ، كما أنها كانت عبارة عن مختصرات روائية أبرزت فى شكل قصص قصيرة · ورغم هذا فان عددا من هذه القصص القصيرة قد اتسم بشىء من النضج من حيث الرؤية الفنية وطريقة المعالجة القصصية ·

وقد تميزت الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية بغزارة الانتاج الادبى ، فقد استمر كتاب المقالة فى نشاطهم ، واصدر كتاب القصة عددا من الروايات والصص القصيرة · أما في مجال المقالة الادبية فقد ظل أعلام الرعيل الاول مثل حسين سرحان وحمزة سحاته ومحمد حسن عواد وحمد الجاسر وعبد القدوس الانصارى وأحمد السباعى وأحمد عبد الغفور عطار ومحمد حسين زيدان وعزيز ضياء مخلصين لرسالتهم الادبية· كما برز حينئذ عدد آخر من المقاليين الذين حذقوا فن المقالة الادبية ، وتميزوا بأصالة الفكر مثل عبد الله عريف وعبد الكريم الجهيمان وعبد العزيز الرفاعى وعبدالله بن خميس وسعد البواردى وغازى القصيبى · وقد ظهر الى جانب هؤلاء الكتاب عدد كبير من كتاب الشباب الذين اتسمت أساليبهم بالحداثة والميل الى التجديد ، ولكن انصرافهم الى العمل الصحفى وانشغالهم بالمقالات الصحفية جعل الاجادة فى فن المقالة الادبية من نصيب كتاب الجيل الاول ·

وقد شهدت السنوات التى تلت الحرب العالمية الثانية فيضا من الادب القصصى ، حيث نشر عدد من الروايات والقصص القصيرة · ولعل أبرز كتاب القصة في هذه الفترة هما المرحوم حامد دمنهورى والاستاذ ابراهيم الناصر اللذان استطاعا أن يجعلا الرواية السعودية أشد اتصالا بالواقع ، واكثر صدقا في تصوير البيئة ، كما أنها اهتما حين رسم الشخصيات الروائية بابراز الانفعالات النفسية ، وتصوير المواقف الانسانية · (٦)

فى الشعر

ظلت الالوان الشعرية التى تستوحى تقاليد الشعر العربى في عصوره الاولى وفى عصور ضعف الدولة العربية مسيطرة على شعر الجزيرة

العربية فى القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن (٧) ، ولكن حيث أن هذه البلاد قد بدأت في مطلع القرن العشرين تأخذ بوسائل الحياة الثقافية الجديدة ، فانه لم يمض الربع الاول من القرن العشرين الا وقد بدت دعوة التجديد فى الشعر السعودى قوية واضحة ·

واذا كان انتاج الادباء السعوديين فى ميدان الفن القصصى أقل من حيث المستوى من آثار زملائهم فى بعض البيئات العربية الاخرى ، فان انتاجهم الشعرى لم يكن أقل أصالة وابداعا من شعر البلاد العربية الاخرى·

لقد ظهر فى هذه البلاد عشرات من الشعراء ، ولعل من ابرزهم حمزة شحاته ومحمد حسن فقى وحسين سرحان وحسن عبد الله القرشى وناصر بوحميد وغازى القصيبى ومحمد العامر الرميح · ولكل واحد من هؤلاء الشعراء منحاه وطريقته فى الابداع الشعرى ، فقد حفل شعر حمزة شحاته بالاصالة الفكرية ، ولكن شيئا من آثار أسلوب المقالى قد يتسلل الى بعض قصائده (٨) · أما محمد حسن فقى ــ الذى اتخذ الشعر أداة للتعبير عن مشاعره المرهفة ووجدانه المعذب ــ فقد امتزجت فى قصائده الفكرة التأملية المتشائمة بالروح الانسانية القلقة ، فأتى شعره بعثا لفن الشاعر العربى المتأمل أبى العلاء المعرى ، واسهاما فى ذلك النوع من الادب الانسانى المعاصر الذى يتأمل فى مصير الانسان فيتسم بروح القلق ، ويصطبغ بنغمة التشاؤم · ولكن هذا النغم الحزين الذى استمرأه الشاعر محمد حسن فقى قد جعل شعره يقع أحيانا فى الايغال العاطفى ، والتكرار المعنوى (٩) ·

واذا استأثرت الروح التأملية الحزينة بأكثر ما نظمه محمد حسن فقى ، فقد ظلت همومه الانسانية متجددة لا تنقضى ، وأصيب بالقلق ازاء الواقع البشرى الاليم ، وأخذت نفسه تغرق فى أشواقها الصوفية وحنينها الى المثل الاعلى ·

قال فى قصيدته « السارى والليل » :

يا ليل ما تجدى الشكاة ·· اذا قسوت فكنت صخرا
هذا الظلام متى يذوب ·· وقد تكاثف واسبطرا
أأظل أخبط فيه عمرى ·· ساء هذا العمر عمرا
لم ألق نجما يهتدينى السرى أو ألق بدرا

أفهل أرى الروض الانيق غدا وانشق منه عطرا
وأرى الغدير وقد تدفق والغصون تميل سكرى
وأرى البلابل تسكب الالحان في الارواح خمرا
وأرى الرفاق الغر بعد النأى والزمن الاغرا
ويقول لى الليل الرهيب ·· وقد تبدى النور غفرا
أم أننى فى السفر سفر الليل ما انفك سطرا
أسرى به كالطيف ينشد في الغيافي السود قبرا
ويرى الحياة وقد دهته فما يطيق العيش خسرا

* * *

عصرتنى الايام حتى ما تطيق اليوم عصرا
وغدوت لاحسا نعمت به ·· ولا استثمرت فكرا
ياليل انى قد الفتك دون هذا الناس طرا
ما عدت أخشى من غياهبك الفواجع وهى تترى
أنا قطعة منها غدوت وصرت أعمق منك غورا
وأنا الذى نورى سيغمر هذه الآفاق غمرا
فأنير للاجيال حاضرها ومقبلها الممرا
ولرب عصفور يعود بقسوة الايام نسرا
ولرب مرهوب يعود بكرة الايام ذكرى
آثرت رقما فاستحال الرقم فى كفى صفرا
يا ريحه هلا استحال نحاسه فى الكف تبرا
نسى المواجد من رأى فى أهلها نسبا وصهرا (١٠)

ومن الشعراء السعوديين المبرزين الذين اتخذوا الشعر أداة للتعبير عن تجاربهم الخاصة ، وتصوير مواقفهم الحياتية الشاعر حسين سرحـان · ورغم أن ديوانه قد حفل بالقصائد التى تتسم بالروح المرحة واللمحات الساخرة ، الا أن شعره لم يخل من لحظات تأملية رجع فيها الى نفسه ، وتأمل فى مسيرة حياته · ومن هذا اللون تلك القصيدة التى أنشأها بعد أن بلغ الخمسين من عمره ، ومما قاله فيها :

تطلـــع للخمسيـــن حتى اذا بـــدت
معالمها وانجـــاب عنهـــا حجابهـــا

غدا متعبا والعيش يزهر مثلما
غدا ناصلا عن ذات ظفر خضابها
وقد كان يرجو بعد خمسين حجة
قرارا لنفس قد أجد عذابها
ويأمل من بعد التطوح راحة
ألا أين ؟ لا أين استقر ركابها
ألا ربما سيم الفتى شؤم خطة
فأنى توقيها وكيف احتقابها ؟
أخمسون عاما قد طويت كانها
منام توشيه الرؤى وكذابها
وقد برمت نفسى علائل عيشها
فكيف وقد ولت وأقبل صابها !!

واذا كان الشاعران محمد حسن فقى وحسين سرحان قد عاشا فى اطار التقاليد الشعرية للادب العربى العريق حين صاغا تجاربها ، فان عددا آخر من الشعراء قد جربوا الاشكال الشعرية الجديدة ، واتخذوا الشعر وسيلة للتعبير عن مواقفهم ازاء الاحداث السياسية والاجتماعية المعاصرة · فقد شغف الشاعران حسن عبدالله القرشى وغازى القصيبى بالشعر الحر ووجداه أداة طيعة مرنة استخدماها فى ابداع شعرهما الذى عالجا فى معظمه القضايا الوطنية ·

ولم يكتف الشاعر محمد العامر الرميح بالتجديد فى الشكل ولكنه أراد أن يجدد فى المضمون كذلك ، فأتى شعره مزيجا من الصور الرمزية والخواطر السريالية (١٢) · واذا كانت تجربة الرميح قد ظلت غامضة كغموض الرموز اللاشعورية التى استخدمها ، فان تجربة الشاعر ناصر بوحيمد كانت أكثر وضوحا وتوفيقا ، فلقد استخدم هذا الشاعر شيئا من الرمز الصوفى ، ولكن كان فى عبارته الرشيقة المجنحة ، وموسيقاه الشعرية المعذبة ، من الرونق والبهاء · ومثال ذلك قصيدته « آفاق » التى قال فيها :

ضاقت بنا الآفاق
يا أيها العملاق
فى عالم ليس به
حب ولا أشواق
الناس فيه صور
ميتة الاحداق
ليس على وجوههم
بشر ولا اشواق
مات الوجود فيها
وجفت الاعماق
فؤادى الخفاق
ضاق به الحسن
لم يبق عندى أمل
لم يطوه اليأس

يا أيها العملاق
قد ضحك الرمس
الناس حولى جثث
لموتها عرس
اعبر بنا الآفاق
قد ضاقت النفس
أخاف أن يفلت منى
الغد والأمس
دونك هذا معبرا
تضيئه الشمس
فلننطلق على دروبه
ولا نقسو
فالناس فيه عالم
يرعشه الهمس

(١٣)

ولقد تعددت بعد ذلك تجارب شعراء المملكة الناشئين ، فجربوا مختلف الاشكال الشعرية الجديدة ، وجابوا كثيرا من الافاق الشعرية الحديثة ولكن بعض هذه المحاولات كانت شبيهة بتلك التجارب التى قام بها نفر من الشعراء المعاصرين فى البلاد العربية الاخرى من حيث أنها ظلت غريبة عن الذوق العربى العام ، يلفها الغموض ، وتختلط فيها الرؤى ، ويصعب أحيانا على الناقد أن يميز أصيلها مما هو مجرد تقليد للاثار الشعرية العالمية المعاصرة .

ومهما يكن الامر فان أولئك الشعراء الذين واءموا بين الرؤية الشعرية الجديدة والتقاليد العربية العريقة مثل محمد حسن فقى وحسين سرحان وناصر بوحيمد وغازى القصيبى كانوا أكثر توفيقا من حيث وضوح التجربة الشعرية والقدرة على التفاعل مع قارىء الشعر العربى الذى تأسره العبارة الشعرية الرشيقة ، وتخلب لبه الرؤية الشعرية الواضحة .

* * *

وتبين من هذه الدراسة الموجزة أن حركة الادب الحديث فى المملكة العربية السعودية قد بدأت متأخرة نوعا ما عما يماثلها من حركات في بعض البلدان العربية الاخرى كمصر والعراق وبلاد الشام ، اذ ارتبطت نشأة الادب السعودى الحديث بتوحيد المملكة السعودية فى أوائل الثلاثينات من هذا القرن .

واذا كان الادباء السعوديون لم يصلوا بعد في مجال الفنون النثرية الحديثة كالقصة والمسرحية الى مستوى فنى يضاهى ذلك المستوى الذى بلغه أعلام الرواية والمسرحية فى بعض البيئات العربية الاخرى ، فانهم قد حققوا في ميدان الفنون العربية الاصيلة كالشعر والمقال قدرا طيبا من الابداع الفنى والاصالة الفكرية .

وعندما يتأمل القارىء فى مسيرة الادب الحديث بهذه البلاد ، يجد انها قد اتسمت بالتطور الدائب والتقدم المستمر . فقد استطاع الادباء أن يحولوا هذا الادب عن وجهته التقليدية ، وأن يصبغوه بصبغة التجديد، بحيث أصبح قادرا على مواكبة تلك النظريات النقدية الحديثة التى تدعو الى الاصالة الادبية والابداع الفنى . وقد وفق الادباء السعوديون في أن ينتجوا انتاجا أدبيا قيما ، وأن يسهموا في حركة الادب العربى الحديث بآثار أدبية اتسمت بطابعهم وعبرت عن شخصيتهم .

د.محمد عبد الرحمن الشامخ

المصادر والهوامش

١ ـ انظر مقدمة ديوانه المخطوط «روح الشعر العربى» الذى ألفه عام ١٩٢٤ ويوجد فى مكتبة مكة المكرمة بمكة بدون رقم . وانظر كذلك كتابه «خواطر مصرحة» الذى نشرته المكتبة الحجازية بمكة سنة ١٩٢٦ . وانظر بحث الدكتور منصور الحازمى «معالم التجديد فى الادب السعودى بين الحربين العالميتين» . مجلة الدارة ، السنة الاولى ، العدد الثانى يونيه ١٩٧٥ . ص ١٠ ـ ٢٥ .

٢ ـ انظر كتاب «أدب الحجاز أو صفحة فكرية من أدب الناشئة الحجازية شعرا ونثرا» جمعه ورتبه محمد سرور الصبان ونشرته المكتبة الحجازية بمكة سنة ١٩٢٦ . وانظر كذلك كتاب «المعرض أو آراء شبان الحجاز فى اللغة العربية» جمعه ورتبه محمد سرور الصبان ، المطبعة العربية بمصر ١٩٢٦ .

٣ ـ انظر على سبيل المثال العدد ٨١ (١ ـ ١١ ـ ١٩٣٣) من جريدة صوت الحجاز وما تلاه من أعداد حيث نقد محمد حسن عواد قصة قصيرة نشرها عبد القدوس الانصارى فى هذه الجريدة . وانظر كذلك ما قاله محرر جريدة صوت الحجاز عن المعارك النقدية فى العدد ٩٦ (١٩ ـ ٢ ـ ١٩٣٤) .

٤ ـ انظر مثلا مقالته «بين الجمال والنقد» جريدة صوت الحجاز عدد ٤٤٩ (٢٥ ـ ٢ ـ ١٩٤٠) وعدد ٤٥٠ (٢٨ ـ ٢ ١٩٤٠) .

٥ ـ انظر على سبيل المثال مقالته «صلة الادب بالحياة» ، جريدة صوت الحجاز ، عدد ١٨١ فى ٥ ـ ١١ ـ ١٩٣٥ .

٦ ـ يوجد المزيد من التفصيل حول هذا الموضوع في بحث الدكتور منصور الحازمى «الرواية فى الادب السعودى الحديث» ، مجلة كلية الاداب بجامعة الرياض ، المجلد الثالث ١٩٧٤ .

٧ ـ انظر عبد الرحيم ابو بكر ، « الشعر الحديث في الحجاز » ، ص ٨٤ ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٩٧٧ ٠

٨ ـ انظر على سبيل المثال قصيدته « ملحمة » التى نشرت فى كتاب « الشعراء الثلاثة فى الحجاز » جمع وترتيب عبد السلام طاهر الساسى ، ص ٥٠ ـ ٥٤ ٠ مطبعة دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٣٦٨ هـ

٩ ـ انظر مثلا قصيدته « زفرات » فى ديوانه « قدر ورجل » ، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٧ ، الدار السعودية للنشر ، جدة ١٩٦٧ ٠

١٠ـ المصدر السابق ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٧ ٠

١١ـ ديوان « أجنحة بلا ريش » ، ص ١٣٥ ، بيروت ، بدون تاريخ

١٢ـ انظر ديوانه « جدران الصمت ـ شعر رمزى » منشورات مجلة بيروت ١٩٧٤ ٠

١٣ـ ديوان « قلق » ، ص ٨٧ ـ٩٠ ، دار الكاتب العربى ، بيروت بدون تاريخ٠